

مدخل الى علم نفس النمو :

يبدو الطفل عند الميلاد كائناً حياً ضعيفاً لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، ومع ذلك فإن هذا الكائن الصغير يملك بين جوانحه استعدادات هائلة وإمكانات عظيمة تؤهله فيما بعد لكي يدرك ويتكلم، يقرأ ويتعلم، يحاكي ويتألق في إعادة تشكيل عالمه الذي يعيش فيه. فالطفل يولد وهو مزود بنظام محكم وبناء دقيق له خصائصه ووظائفه المحددة من قبل ، وعبر مرحلة العمر الطويلة يعمل هذا النظام على تشكيل وتطوير وتعديل هذه الاستعدادات بما يتفق ونوع البيئة التي يعيش فيها على أن الإنسان يتعرض على مدى الحياة للعديد من التغيرات المتتالية والمتلاحقة التي تسرع أحياناً وتبطئ أحياناً أخرى .

فخلال السنوات الأولى من العمر تبدأ العديد من الملامح الجسمية والمهارات الحركية والقدرات العقلية في الظهور لكي تأخذ في التبلور والتشكل وإتمام النضج في نهاية مرحلة المراهقة . وبدخول المراهق مرحلة الرشد تأخذ هذه التغيرات جميعاً يعاً مظهر الاستقرار والثبات لتعود بعد ذلك إلى التدهور والاضمحلال مع التقدم في العمر .

والسؤال الآن : ما هي العوامل والمحددات التي تقف وراء مثل هذه التغيرات المختلفة التي تطرأ على الإنسان طوال حياته ؟ وهل يولد الإنسان وهو مزود باستعدادات أولية فطرية تكون باعثة لهذا التغيير ومحركة له ؟ وإذا كان الإجابة بنعم فما هي هذه الاستعدادات ؟ وكيف تكون الحالة الأولية التي يولد بها الطفل والخاصة بهذه الاستعدادات ؟ وهل جوهر التغيير عند الإنسان يكون بفعل هذه الاستعدادات. فقط ، أم أن البيئة التي ينتقل إليها ويعيش فيها تحمل معها جزءاً من هذا التغيير ؟ وإذا كان البيئة تساهم في إحداث قدر من التغيير في سلوك الإنسان عبر العمر ، فما هو نوع هذه البيئة ... هل هي بيئة فيزيقية أم بيئة اجتماعية أم بيئة ثقافية وحضارية أم أنها كل هذه البيئات مجتمعة معاً ؟

وعلى الرغم من اتفاق معظم الباحثين على أن الاستعدادات الوراثية التي يولد بها الطفل والمؤثرات البيئية التي يتعرض لها تمثل المصدرين الرئيسيين وراء التغيرات التي تطرأ عليه طوال مرحلة الحياة ، غير أن السؤال الذي لا يزال يثير الجدل هو : كيف وبأي طريقة يمكن للعوامل الوراثية والبيئية أن تحدث هذا التغيير ؟ هل يتكافأ أثر الوراثة والبيئة على كل مظاهر السلوك عند الفرد ؟ أم أن هناك أنواعاً من السلوك تتأثر بدرجة أكبر بالعوامل الوراثية على حين تتأثر مظاهر أخرى من السلوك بالعوامل البيئية بنسبة أعلى ...

تعريف علم النمو –الارتقائي- : يعرف علم النفس الارتقائي بأنه أحد فروع علم النفس الأساسية التي تهتم بدراسة التغيير الذي يطرأ على سلوك الإنسان عبر مراحل العمر المختلفة ، وذلك منذ اللحظة الحمل وحتى لحظة الوفاة، ولا يهتم علم النفس الارتقائي فحسب بوصف التغيرات التي تطرأ على السلوك والمصاحبة للعمر ، لكنه يتعدى ذلك المحاولة تفسير هذا التغيير عن طريق اكتشاف القوانين والمبادئ والنظريات المفسرة للجوانب السلوك ويفيد هذا التفسير في الكشف عما إذا كان هذه التغيرات فردية أم عامة بين الأفراد، وهل تختلف باختلاف العوامل الثقافية والاجتماعية للفرد، وكيف تساهم عوامل النضج البيولوجي في تفسير هذا التغيير .

وعلى الرغم من تعدد النظريات الخاصة في علم النفس الارتقائي ، غير أن هناك مواضيع مشتركة تختتم بمناقشتها هذه النظريات.. من هذه الموضوعات مثلاً ما هو جوهر الارتقاء؟ وهل الارتقاء كهي أم كيفي؟ وهل الارتقاء متصل أم غير متصل وكيف تساهم عوامل الوراثة والبيئة في تشكيل عملية النمو والارتقاء؟

أهمية دراسة علم النفس الارتقائي في حياتنا العامة:

تكتسي دراسة علم النفس الارتقائي أهمية كبرى، ليس للدارسين والباحثين في علم النفس فحسب، ولكنها تتعدى إلى المرين من آباء وأمهات ومعلمين ممن يكون لهم مسئولية كبرى في تربية وتنشئة الأبناء، كذلك تفيد دراسة سيكولوجية النمو الأشخاص بشكل عام في فهم طبيعة وخصائص مرحلة النمو التي يعيشها ، ونوع التغيرات الخاصة التي تطرأ عليه في هذه المرحلة ، وكيف يستطيع أن يتوافق ويتكيف مع هذه التغيرات. وسوف تحاول أن توجز فيما يلي أهمية دراسة علم النفس الارتقائي.

من الأهداف الرئيسية التي يسعى إليها الباحثون في علم النفس الارتقائي الوصول إلى ما يسمى بمعايير النمو ، وتعرف معايير النمو بأنها متوسطات أعمار الأطفال الذين يستطيعون القيام بمهارة معينة في وقت معين ، وتغطي معايير النمو جميع مظاهر النمو الجسمية والحركية والعقلية .

وتفيد معرفتنا بمعايير النمو عند الأطفال في الكشف عن معدلات النمو عند الطفل ومدى اختلافه عن أقرانه ، وكذلك معرفة أنواع الشذوذ أو الإعاقات التي تطرأ على النمو حتى يمكن تقديم العلاج المناسب في وقت مبكر.

-تفيد معرفتنا بمبادئ وقوانين النمو في علم النفس الارتقائي في فهم وتفسير كثير من مظاهر السلوك لدى أبنائنا ، فمعرفتنا بقانون تشابه وتفرد نمط الارتقاء يساعدنا في اختبار أفضل أساليب التنشئة الاجتماعية التي تتناسب مع طبيعة أبنائنا. فعلى الرغم من التشابه الذي تلاحظه بين الأخوة في الأسرة الواحدة ، إلا أن كل طفل يختلف عن الآخر من حيث استعداداته وقدراته ومعرفة الآباء والأمهات لهذه الحقيقة تساعد على تنمية هذه الاستعدادات عند أبنائهم وعدم عقد مقارنات بين الأخوة بعضهم والبعض الآخر، بل معاملة كل طفل بما يتفق واستعداداته وميوله وقدراته.

يهتم علم النفس الارتقائي بدراسة وتفسير كثير من الظواهر النمائية المعرفة أسباب حدوثها حتى يمكن التحكم فيها ، فمثلاً معرفتنا بأن نمو الطفل لا يبدأ منذ الميلاد بل يبدأ منذ لحظة الإخصاب يفيد الأم كثيراً في الاهتمام بصحتها أثناء فترة الحمل بحيث تحرص على الابتعاد عن أي مصادر للقلق أو التوتر أو الإصابة بأي أمراض معدية ، مع العناية بنوع الغذاء الذي تتناوله ، وذلك لكي تضمن لطفلها نمواً جسماً وعقلياً سليماً بعد الميلاد وتجعله بمأمن من حدوث أي تشوهات خلقية يمكن أن تحدث له فيما بعد....

- تفيد دراسة علم النفس الارتقائي في فهم كثير من التغيرات التي تطرأ على السلوك عبر مراحل العمر المختلفة. فمثلاً تفيد دراسة النمو عند المراهقين والمراهقات في تفسير كثير من التغيرات الفسيولوجية المصاحبة لهذه الفترة وعلاقتها بالتغيرات الجسمية والعقلية والانفعالية ، كما تساعد المراهق وتوجهه في كيفية تحقيق التوافق والتكيف مع هذه التعبيرات، وكيف يمكنه أن يوازن بين أهدافه وميوله ورغباته وبين ما يفرضه عليه المجتمع من تقاليد وعادات

علاقة علم نفس النمو بالفروع الأخرى من علم النفس:

تنقسم فروع الدراسة في علم النفس بوجه عام إلى مجموعتين رئيسيتين هما: مجموعة الفروع الأساسية Science Basic مثل: علم النفس العام ، علم النفس الفسيولوجي ، علم النفس الاجتماعي ، علم النفس الارتقائي ، علم النفس المعرفي (ومجموعة الفروع التطبيقية) مثل علم النفس الإكلينيكي ، علم النفس الصناعي ، علم النفس التربوي ، علم النفس الجنائي .. الخ (، وتشترك الفروع الأساسية جميعاً في أنها تهتم بدراسة السلوك الإنساني دراسة علمية وذلك بغرض الوصول إلى نظريات خاصة. بتفسير نوع السلوك المراد دراسته. أما مجموعة الفروع التطبيقية في علم النفس فهي الهدف إلى الانتقال بالقوانين والنظريات التي توصل لها الفروع الأساسية إلى مجال التطبيق العلمي بحيث يمكن الاستفادة منها في الميادين العلمية الحديثة ويندرج علم النفس الارتقائي ضمن الفروع الأساسية في علم النفس ، حيث يهدف - كما سبق أن ذكرنا - إلى دراسة التغيرات التي تطرأ على السلوك غير العمر. وعلم النفس الارتقائي يتفق مع سائر الفروع الأساسية في علم النفس في أنه يهدف إلى دراسة السلوك ، ولكن من زاوية معينة هي التغير عبر العمر ، كما يتفق مع هذه الفروع من حيث الهدف ، حيث يسعى إلى الوصول إلى نظريات خاصة بتفسير ظاهرة النمو النفسي للإنسان.

أما عن علاقة علم النفس الارتقائي بالفروع التطبيقية فهي كثيرة ومتعددة . ومن أكثر الفروع التطبيقية في علم النفس التي يمكن الامتداد إليها بقوانين ونظريات النمو هي علم النفس الإكلينيكي ، فالباحث في علم النفس الإكلينيكي يهتم أساساً بدراسة السلوك غير السوي أي السلوك المرضي.

وتمثل إعاقات النمو أحد الفروع الحديثة في علم النفس الإكلينيكي ، حيث يهتم الباحث في هذا النوع بكيفية الاستفادة من المبادئ والقوانين والنظريات الخاصة في علم النفس الارتقائي لتطبيقها في المجال الإكلينيكي الخاص بفحص وعلاج الحالات الخاصة بإعاقات النمو عند الطفل.

بعض المفاهيم الرئيسية في علم نفس النمو: على الرغم من تعدد المصطلحات الخاصة في علم نفس النمو إلا أنه بإمكاننا يمكن استعراض أربعة مفاهيم رئيسية تشكل اللبنة الأساسية التي تقوم عليها الدراسة في هذا التخصص:

أ- النمو: يعرف النمو بأنه تلك التغيرات الكمية التي تطرأ على الكائن الحي عبر العمر والتي يمكن قياسها بصورة كمية فجسم الطفل مثلاً يطرأ عليه الكثير من التغيرات الكمية مثل الزيادة في الوزن والطول...زيادة حجم العظام زيادة وزن المخ...الخ...وتعتبر هذه التغيرات الكمية بأنها إضافات أكثر منها تحولات.

ب- الارتقاء: يعرف الارتقاء بأنه سلسلة متتابعة من التغيرات الكيفية التي يتجه فيها الكائن الحي نحو مزيد من التقدم وتتصف هذه التغيرات بأنها تغيرات منتظمة ومتتابعة وذات هدف محدد.

ويعني ذلك إن الفروق الجوهرية بين مفهوم النمو والارتقاء تكمن في نوع التغيرات التي تطرأ على الكائن الحي عبر العمر مثلاً: مراحل الارتقاء التي يمر فيها النبات تبدأ أولاً بظهور الجذور ثم الساق ثم الأوراق ثم الزهور وأخيراً الثمار، ويشير ذلك إلى تغيرات كيفية تطرأ على النبات ، حيث تنبثق أجزاء جديدة لم تكن موجودة من قبل ومع ذلك التغير الكيفي في

نمو النبات لا يلغي حدوث التغير الكمي والذي يتمثل في حدوث زيادة كمية عبر الوقت تتمثل في كبر حجم الجذور، الساق، الأوراق.

ومن الأمثلة التي توضح الفرق بين النمو والارتقاء هو التغير الذي يطرأ على الذاكرة أو اللغة عبر العمر فإذا سألنا أنفسنا هل التغير الذي يطرأ للذاكرة عبر العمر كمي ام كيفي؟ فان الإجابة التي تطرأ على الذهن مباشرة هي إن الذاكرة يحدث لها تغير كمي حيث أن عدد الأشياء التي يستطيع الطفل تذكرها يزداد عبر العمر، فمثلا يمكن للطفل الذي يبلغ من العمر أربع سنوات أن يتذكر قائمة تتكون من أربع كلمات في حين يمكن لطفل في السابعة من العمر تذكر قائمة مكونة من سبع كلمات هذا التغير في سعة الذاكرة عبر العمر يمكن أن يفسر على انه تغير كمي في حين يرى البعض أن التغير الذي يطرأ على الذاكرة يمكن أن يكون كيفيا، حيث يستخدم طفل السابعة من العمر استراتيجيات خاصة في التذكر مثل التنظيم والتبويب وهي غير متاحة لطفل الرابعة من العمر، كذلك الحال بالنسبة للغة ، حيث تزداد محصلة الطفل اللغوية كمي مع التقدم في العمر ومع ذلك لا نستطيع إنكار حدوث الكثير من التغيرات الكيفية التي تطرأ على السلوك اللغوي للطفل، والذي يبدأ في شكل مناغاة ثم يتحول إلى النطق بكلمة واحدة ثم النطق بكلمتين ثم جملة بسيطة ثم جملة معقدة.... الخ وبصفة عامة يمكن القول إن الإنسان يتعرض طوال حياته لكلا النوعين من التغير كما هو الحال بالنسبة لباقي الكائنات الحية الأخرى، فهو ينمو ويرتقي في أن واحد ويعني ذلك أن كلا من النمو والارتقاء يتشابهان في أنهما يكشفان عن مظاهر التغير التي تطرأ على السلوك عبر العمر فبينما يشير النمو إلى التغيرات الكمية في السلوك يشير الارتقاء إلى التغيرات الكيفية.

ج- النضج: يشير مفهوم النضج إلى تفتح الاستعدادات البيولوجية والوراثية للطفل في سن معينة أو في فترة زمنية محددة، وتعرف عمليات النضج بأنها مجموع الإمكانيات الوراثية والمكونات الأولية التي يرثها الطفل من الوالدين، من ثم فهي تمثل المحدد الأول لكل الخصائص البدنية والعقلية وسمات الشخصية التي تكون الفرد فيما بعد.

وتحتل عملية النضج مكانة خاصة في علم نفس النمو، حيث يفترض انه بمقتضاها يتم التحكم في ارتقاء جوانب معينة من السلوك، أو بعبارة أخرى فان النضج من شأنها أن تحدث تغيرات في عمل أجهزة الجسم والتي تؤثر بدورها على ظهور أنواع معينة من السلوك، حتى دون تنبيه أو تدريب سابق.

مثلا: كشف بعض الدراسات الحديثة التي أجري على الأطفال الرضع إن منحنيات المناغاة عند الأطفال الرضع الصم تكون شبيهة ومماثلة لمنحنيات الأطفال الأسوياء، حتى الشهر السادس من العمر، وذلك على الرغم من عدم تعرض الأطفال الصم لأي منبهات لفظية أو الاستماع لأي أحاديث تساعدهم على المناغاة.

وتساهم عملية النضج إلى حد كبير في إحداث الكثير من التغيرات التي تطرأ على سلوك الفرد عبر العمر ، هذا ومع اعتقادنا بأهمية عوامل النضج في تشكيل سلوك الفرد، غير انه من المغالاة تصور مسؤوليتها عن كل التغيرات التي تطرأ على الفرد عبر العمر، وأنها لا تتأثر بعوامل البيئة الخارجية التي تحيط بالطفل.

د- التعلم: يشير مفهوم التعلم إلى التغير الذي يطرأ على السلوك بفعل عوامل الخبرة أو التدريب، ويعرفه آخرون بأنه أي تغير نسبي يحدث في أداء أو سلوك الفرد تحت شرط التكرار والممارسة لإشباع دوافع الفرد.

وبوجه عام تشير عملية التعلم إلى ارتقاء السلوك من خلال التدريب ،فمن خلال التعلم يكتسب الأطفال القدرة على الاستفادة من كل ما هو موروث بحيث يمكن استخدامه بدرجة عالية من الكفاءة ،ويعني ذلك إن كلا من النضج والتعلم وجهان لعملة واحدة ، حيث يفسران لنا الأسباب التي تقف وراء التغير الذي يطرأ على السلوك عبر العمر، فإذا تحدثنا عن أسباب ومحددات بيولوجية وراثية كنا أمام مفهوم النضج، وإذا تحدثنا عن أسباب ومحددات بيئية كن بصدد مفهوم التعلم.

وتتعدد الأساليب التي كتسببها الطفل مهاراته المختلفة فقد يتعلم من خلال التقليد حيث يقوم الطفل بتقليد من هم حوله التدريب حيث يقوم احد المدربين الأكفاء بتعليم الطفل مهارة معينة حسب قواعد ونظم ثابتة.